مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (1)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (1) 2011

الدين في حياة الإنسان المعاصر

الدكتور أحمد أبو زايد*
منقذه العلان**

(تاريخ الإيداع 3 / 3 / 2010. قبل للنشر في 24 / 1 / 2011)

□ ملخّص □

يناقش هذا البحث الأزمة الروحية الحاضرة لإنسان عصر العلم، ويحاول أن يقدم دراسة نقدية فلسفية تشرح ملامح هذه الأزمة ونتائجها وأسبابها الكامنة في التصور المادي للعالم الذي يقلص وجود الإنسان ويحرمه من كل أبعاده الروحية وما يتبع ذلك من اختناق روحي وفقدان للأمل وسيطرة للمادية والفردية المتنكرة للدين بحثاً عن مجتمع تحترم فيه الروح الإنسانية وتحفز لاستثمار قواها كاملة.

الكلمات المفتاحية: الدين–العلم– التكنولوجيا– الطوطم – الإنسان–الظاهرة الدينية.

* أستاذ – قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق.
** طالبة دكتوراه– قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (1)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (1) 2011

Religion in the Lives of Contemporary Human Being

Dr. Ahmad abu zayed*
Monketha al allan**

(Received 3 / 3 / 2010. Accepted 24 / 1 / 2011)

□ ABSTRACT □

This paper discusses the spiritual crisis of the present era of human science, and tries to offer a critical study of philosophical trends that explain the features of this crisis and its causes and consequences inherent in the materialist conception of the world. This reduces human rights and deprives Man of all spiritual dimensions. The consequent congestion and loss of spiritual hope and physical control of the individual lead to negate the search of a society for the human spirit that stimulates investment in full strength.

Keywords: Religion - Science - Technology - Totem - rights - the phenomenon of religion.

*professor of ethics, department of philosophy, faculty of arts and humanities , university of Damascus, Damascus
Arts and Humanities, University of Damascus, PhD student - Department of Philosophy - Faculty of Damascus.

مقدمة:

منذ عصر النهضة وما تلاه من ازدهار كبير للعلوم التطبيقية ، افتتن كثيرون في الغرب بالانتصارات المذهلة وما أفرزته من تكنولوجيا ومنتجات قلبت وجه الحياة ، وتصوروا أن العلم سيكون بعد وقت قريب قادراً على أن يحل كل شيء ، وأنه لا وجود لحقائق خارج المختبر ، لكن المتعمقين في العلم كانت لهم دائماً وجهة نظر مختلفة؛ إذ عرفوا أن العلم يتحرك ضمن نطاقه الخاص المادي والمحدود في حين أن المعرفة نطاقها أوسع بكثير فالعلم يصف كيفية عمل الأشياء ولكن ليس في مقدوره الإجابة عن العلة الغائية من وجودها ولماذا يوجد الإنسان في هذا العالم؟ وما المراد من ذلك؟ كما أنه ليس في مقدوره تحديد القيم أو المثل الأخلاقية ؟ وهذه أسئلة أفضل من أجاب عليها الرؤية التقليدية للعالم كما هي في الدين.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية هذا البحث من ضرورة فهم علاقة الإنسان المعاصر بالدين ومكانته لديه في ضوء التغيرات التي تنشأ عن التطورات العلمية المتسارعة، ونهدف من خلال هذا البحث إلى بيان أسباب الأزمة الدينية المعاصرة وخصائصها في ضوء ما يتعرض له الإنسان وما يؤمن به من هجمات ثقافية وفكرية.

منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على مقابلة الأفكار والموازنة بينها لبيان التغيرات التي لحقت بالدين في هذا العصر، ولم يتم الالتزام بمنهج وحيد بل تمت الاستفادة من معظم الآراء المطروحة في هذا الموضوع.

1- الدين ماهيته وتعريفه:

تثير كلمة الدين أو العقيدة الدينية من حيث معناها والمقصود بها خلافات عدة ووجهات نظر متباينة من جانب الفلاسفة والمفكرين وغيرهم ممن تناولوا مفهوم هذا المصطلح بالدراسة والتحليل، بحيث يمكن القول إن أي تعريف مقبول للدين من الصعب الوصول إليه، وقد بذلت محاولات عدة للكشف عن المكونات أو العناصر الجوهرية في كل الأديان حتى يمكن الوصول إلى جوهر الدين وماهيته وقد صادفت هذه المحاولات اعتراضات كثيرة إما بسبب تعدد الديانات الإنسانية الذي يجعل من الممكن وجود نماذج متضادة للعقائد الدينية، وإما لأن هذه العناصر التي تذكر على أنها جوهرية هي في بعض الديانات عناصر ثانوية.

وتعزى صعوبة الوصول إلى تحديد نهائي للدين أيضاً إلى كون ما يمكن أن نعده ديناً متداخلاً مع جوانب ومظاهر أخرى من الخبرة.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات تبقى أفضل بداية لدراسة الظاهرة الدينية هي وضع تعريف للدين؛ لأن هذه الخطوة المبدئية قد تحمي البحث من أن يجد نفسه وهو يلاحق ظواهر بعيدة عنه أو يتابع جوانب ثانوية فيه على حساب الجوانب الرئيسة؛ لذلك لابد من وضع تعريف أولي يهدف إلى رسم الإطار العام لهذا البحث دون أن يدعي الشمول العام والإطلاق.

المعنى اللغوي:

في اللغة الأجنبية religion اشتقاق مجادل فيه، يستخرجه معظم القدماء من religiare ويرون فيه فكرة الربط ، الربط الواجب تجاه بعض الممارسات، إما جامعاً بين الناس وإما جامعاً بين الناس والآلهة، ويشتق شيشرون الكلمة من relire بمعنى تحديد الرؤية بدقة، ويبدو بوضوح أن الاعتقاد الذي يسود اليوم هو أن الدين متعلق بالربط لكن بمعنى مختلف عن الذي أعطاه إياه شيشرون، ولاشك في أن هناك فعلين على هذه الصورة في أحدهما re التي تملك قيمة تكرارية بالفعل، وعندها تعني relego قرأ ثانية أو قرأ في عدة مناسبات، وتعني أيضاً اجتاز مجدداً طريقاً أو بلداً، وفي الفعل الآخر لا تدل هذه البادئة على التكرار بل على الاجتماع بالتقارب ، وقد تعني حينئذ جمع/قرب/وحّد ويمكن أن تعني معنى آخر وهو اعتنى وأجلّ أو احترم شيئاً ما، وبنحو عام تبدو كلمة religo في اللاتينية الإحساس المصحوب بخوف وتأنيب الضمير أو بواجب ما تجاه الآلهة، ولم يكن لدى القدماء سوى كلمة religions وتعني الديانات، وعند لوكريس تعني كلمة religio المفردة ديناً ما، أو ديناً بوجه عام، ومع هذا كله يعد تعميم هذه الكلمة واقعة مرموقة فهو يبرز بكل جلاء فكرة الاعتقاد بأي خارق إعجازي، أما فكرة الإله الواحد بما هو قوة معنوية فقد أدت إلى دين واحد له ميزة معنوية- أخلاقية، وعندما يحكى اليوم عن عدة ديانات ، فإنما يحكى عنها في معنى مختلف تماما عن المعنى الذي كان يشير إليه الأقدمون، عن تعدد الديانات ، فكل دين هو منظومة متكاملة تعد نفسها المنظومة الحقيقية والوحيدة.[2]

بناء على ما سبق يبدو أن كلمة دين في اللغة الأجنبية تعبر عن ثلاثة معانٍ: الأول إقرار نظري أو مجموعة إقرارات نظرية عقلية، والثاني مجموعة أفعال عبادية، والثالث علاقة مباشرة ومعنوية بين النفس البشرية والله.

وفي اللغة العربية يشتق الدين من اللفظة (دان)، ودان الناس يعني قهرهم على الطاعة، والدين هو الحساب ومنه قوله تعالى "مالك يوم الدين"*، وقيل في معناه مالك يوم الجزاء، والدين هو الطاعة، وقد دنته ودنت له أي أطعته، والجمع أديان، فيقال دان بكذا ديانة فهو ديّن ومتدين، ويشار إلى الدين عادة على أنه ما يتدين به الإنسان، جمعه ديانة وأديان وهو اسم لجميع ما يعبد به الله والحكم والمذهب.....[3]

المعنى الاصطلاحي للدين:

يورد لالاند في موسوعته الفلسفية تعريفات ثلاثة للدين: الأول يعرف الدين بأنه مؤسسة اجتماعية متميزة بوجود آلاف من الأفراد المتحدين بأداء بعض العبادات المنتظمة، واعتماد بعض الصيغ، والاعتقاد بقيمة مطلقة لا يمكن وضع شيء آخر في كفة ميزانها، وهو اعتقاد تهدف الجماعة إلى حفظه؛ إذ يتنسيب الفرد إلى قوة روحية أرفع من الإنسان، وينظر إليها بوصفها قوة منتشرة إما كثيرة وإما وحيدة هي الإله.

وفي تعريف آخر يجسد الدين نسقاً فردياً لمشاعر واعتقادات وأفعال مألوفة موضوعها الإله، والدين تحديداً هو المطالبة بوجهة نظر الإيمان إلى جانب وجهة نظر العلم.

---

[2] – لالاند، اندريه، *الموسوعة الفلسفية*، الجزء الثالث، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1996م، ص 1203-1204.

* – سورة الفاتحة ، الآية رقم 3.

[3] – ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: *لسان العرب*، مجلد 4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، بيروت، 1997م.، ص458.

وهو أيضاً الاحترام الضميري لقاعدة العادة والشعور، وكان هذا المعنى في الماضي أكثر تداولاً مما هو عليه اليوم.[4]

ويطلق الدين عند الفلاسفة القدماء على وضع إلهي يسوق ذوي العقول إلى الخير، والفرق بين الدين والملة والمذهب أن الشريعة من حيث إنها مطاعة تسمى ديناً ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهباً، وقيل: إن الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منسوب إلى الإله، والملة منسوبة للرسل، والمذهب منسوب إلى المجتهد، وكثيراً ما تستخدم بعض هذه الألفاظ مكان بعضها الآخر.

ويطلق الدين في الفلسفة الحديثة على عدة معان منها:

- الدين جملة من الإدراك والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس البشرية من جراء حبها للإله وعبادتها وطاعتها لأوامره.

- الدين أيضاً هو الإيمان بالقيم المطلقة والعمل بها، كالإيمان بالعلم أو الإيمان بالتقدم أو بالإنسانية.

- والدين الطبيعي اصطلاح أطلق في القرن الثامن عشر على الاعتقاد بوجود الإله وخيريته وروحانية النفس وخلودها وبإلزامية فعل الخير من جهة ما، هو ناشئ عن وحي الضمير والعقل، على حين أن الثاني قائم على وحي إلهي يقبله الإنسان من الأنبياء أو الرسل.

- والدين أيضاً مؤسسة اجتماعية تضم أفراداً يتحلون بقبولهم بعض الأحكام المشتركة، وقيامهم ببعض الشعائر، وإيمانهم بقيم مطلقة وحرصهم على توكيد هذا الإيمان وحفظه، كما يشتركون في اعتقادهم بأن الإنسان متصل بقوة روحية أعلى منه ومفارقة لهذا العالم وسارية فيه.[5]

وتخلط هذه المعاني التي تعتمدها الفلسفة الحديثة بين الدين بوصفه نصا ثابتاً وتفسيراته البشرية بوصفها أرضية متحركة.

ويتناول الباحثون في حقل دراسة الظاهرة الدينية عدة تعاريف اصطلاحية يأتي في مقدمتها تعريف وليم جيمس في كتابه the varities of religious experience عندما يعرفه بأنه الأحاسيس والخبرات التي تعرض في عزلتهم وما تقود إليه من تصرفات وتتعلق هذه الأحاسيس بنوع من العلاقة التي يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعده إلهياً .

وواضح أن وليم جيمس يتحدث عن الخبرة الدينية في مجال الممارسة الفعلية في الحياة الإنسانية وليس عن الدين بوصفة مكملاً روحياً للإنسان.

وفي تعريف آخر يقترب ماكس موللر max muller (1822–1900) من هذا المعنى عندما يؤكد في أحد كتبه أن الدين هو كدح من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، إنه توق إلى اللانهائي ، واللانهائي كما يراه شلر ماخر schleir macher(1768–1834) هو وحدة العالم المدرك وتكامله وهذه الوحدة لاتواجه الحواس بوصفها موضوعاً، وإنما تنبي عن نفسها بالمشاعر الداخلية، وعندما تنتقل هذه المشاعر إلى حيز التأملات فإنها تخلق في الذهن فكرة الإله، وإن الخيال الفردي هو الذي يسير بفكرة الإله إما نحو المفارقة والتوحيد وإما نحو نوع غير مشخص من الألوهة يتسم بوحدة الوجود.[6]

---

[4] – لالاند، أندريه، *موسوعة الفلسفة*، الجزء الثالث، ص 1203–1206.

[5] – صليبا، جميل، *المعجم الفلسفي*، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م ص 572–573.

[6] – GRISH.b.A.F. *schleir macher*,encyclopedia of religion, vol 13Grolier Incorporated, U.S.A, First Edition, 1829. p 112.

وفي هذا إقرار واضح بلا مادية الظاهرة الدينية، ودور الإنسان في التعامل مع الدين؛ لأنه جملة مشاعر داخلية تتحول إلى فكرة ذهنية يصقلها الخيال.

وعند الحديث عن الدين لابد من التفرقة بين الدين والإيديولوجيا الدينية؛ لأن تقابلهما يفترض الجمع والوحدة، ولا يقوم على اللاإثنية والفرقة، حتى ليغدو، ما يظن أنه ثنائية، أمرا واحدا في الواقع،ولكن هذا لا يعني أن الدين في ذاته يعادل الإيديولوجيا، أو أنه هو نفسه إيديولوجيا.

ففي لحظة الالتقاء الفعلي بين الدين بوصفه نظام اتصال الإنسان بالإنسان والإنسان بالله، وبين الإيديولوجيا بوصفها فهماً وإعادة فهم وتفسير لذلك النظام حينها لن تنفصل الإيديولوجيا عن الدين بل ستأخذ منه ويأخذ منها.

لكن الدين يستوي على أرض الثابت والإيديولوجيا على أرض المتحول، وهذا ما يعطيها بعداً وظيفياً يسهل التلاعب به من قبل بعض المؤسسات، وخلافا للدين بما هو وحي إلهي فإن الإيديولوجيا معرفة دينية؛ اي مستنتج بشري يحمل جميع العلاقات والصفات البشرية، ويثير الخصومات، ويحتمل الظن واليقين بمعنى انها تصبح أقرب إلى أن تكون ديناً ثانياً تجد فيه الأهواء والمصالح مكانا. [7]

وان تحويل الدين إلى إيديولوجياهو اليوم حقيقة راهنة، فلم يعد التحويل مجرد قابلية فقط بل أصبح مجالاً خصباً للتوظيف؛ إذ يبدو وفي لحظة ما أنه لا مناص للعالم من إيديولوجيا تحمي أهله، أكانت هذه الإيديولوجيا محمودة أم مذمومة.

2- نشأة الدين:

يكثر الجدل بين الباحثين حول نشأة الدين أو العقيدة الدينية، وكيف كانت بداية التدين، وحول صحة ما اعتاد الباحثون قوله من أن العقيدة قد تطورت من طور التعدد polly theism إلى طور التمييز والترجيح hneo theism وأخيراً طور الوحدانية mone theism واستناداً إلى ما وجد في الحضارات القديمة من مظاهر مرتبطة بالحياة الدينية لشعوبها، فقد شاعت عبادات الطوطم وكانت الطواطم بمنزلة رموز للأسرة والقبيلة كالصقر والنسر وغير ذلك من الفصائل الحيوانية، وقد وجد في الهند عقيدة وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، وحلول أرواح الموتى والأسلاف في أجساد الحيوانات وعودتها إلى الحياة في محنة التكفير والتطهير، ثم تحولت هذه الرموز واندمجت في العبادات الراقية على شكل من الأشكال، كما خلص الهنود من عقيدة التناسخ إلى الإيمان بالإله الواحد، ثم جاءت عبادة الشمس وهي أرقى ما وصل إليه البشر في عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وكانت الشمس رمزاً محسوساً للإله الواحد المنفرد بالخلق في السماء والأرض، وارتبطت هذه العبادات والمظاهر بالدين وكانت وليدة اقتناع وإيمان من جانب البشر بوجود قوة خارقة لا حد لها تتحكم في مصير الإنسان وهي مصدر نفعه وخيره ومن ثم آمن بها واستسلم لها وتقرب منها طلباً للرضا ودفعاً للضرر عنه.[8]

إن حاجة الإنسان الروحية والفراغ الروحي الذي كان يعيش فيه هو من دفعه إلى الإيمان بوجود قوة خارقة تتحكم في سلوكه ومصيره وجعله يتقرب منها طلبا للرضا وحماية لنفسه من أذاها.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن ظهرت نظريات ومذاهب تحاول تحديد الصورة التي وجد عليها الدين أول ما وجد وأياً تكن نشأة الدين فقد كانت له مكانة كبيرة في حياة الإنسان، فما هي؟؟

---

[7] – انظر: محمود حيدر، الدين والإيديولوجيا: جدلية الاتصال والانفصال، في www.tahawlat.com

[8] – يوسف، حسين، *الاتجاه الديني المعاصر لدى الشباب*، دار المنارة، الإسكندرية، 2005م، ص 37-38.

3- مكانة الدين في حياة الإنسان:

تعرض الفلسفات والعلوم كل يوم تعريفات عديدة للإنسان بوصفه كائناً فريداً يرغب دوماً في رسم حدود فاصلة بينه وبين شركائه على هذا الكوكب، ونظراً لتعدد هذه التعريفات فقد يصح أن يضاف إليها تعريف الإنسان بأنه كائن متدين، فالدين ظاهرة من أهم الظواهر المميزة للجماعات البشرية منذ بداية تكونها، فقد ترك الإنسان الأول إلى جانب أدواته شواهد عدة على وسطه الفكري تشير بدورها إلى بوادر دينية لا لبس فيها وتبين ظهور الدين إلى جانب التكنولوجيا بوصفهما مؤشرين أساسيين على بداية الحضارة الإنسانية، ولا تزال نواتج الحضارة الإنسانية استمراراً لهما، فكل ارتقاء مادي تكنولوجي قد تسلسل من تلك التقنيات الحجرية الأولى، وكل ارتقاء فكري وروحي قد تسلسل من تلك البوادر الدينية الأولى وتطور عنها.

ويعترض كثيرون على المكانة التي تنسب للدين في حياة الإنسان المعاصر، ويؤكدون أنه كان إلى وقت قريب يعمل على تقدم الإنسانية، فالأخلاق كانت متوقفة عليه إلى حد ما ، ولعل تقدم الأخلاق نفسه هو من جعل الدين بل أرغمه على أن يتلاءم معها، أما في هذا العصر فقد انفصلا؛ لأن الأخلاق أضحت وحدها كافية في توجيه الإنسانية.

وإن مسألة الصلة بين الأخلاق والدين هي مسألة الصلة بين الأفكار في العقل البشري؛ إذ إن تقدم هذا العقل نحو الكمال، لا يهم إذا كان الدين في الماضي يعلم البغض والآن يعلم الحب، فالأخلاق لا تنفي الدين، وليس بين تعاليم أحدهما وأوامر الآخر إلا خلاف في العبارة، ومع ذلك فهناك خصائص كثيرة يتميز فيها الدين من الأخلاق حتى في الأجزاء التي يتفق فيها معها، فإذا كانت تعاليمهما الصحيحة متطابقة – في شطر كبير منها – فثمة اختلاف يخص الأسس، فالدين قبل كل شيء عمل وحياة والأساس هو مبدأ التحقيق، ومن ناحية ثانية هو صلة الفرد بالإله فنزعته عالمية أساساً؛ لأنه بمساواة حاسمة بين الإنسان وبقية الكائنات، ولأن الدين يستهدف كذلك التأثير في الإنسان باطنياً وظاهرياً، وإذا كان الأخلاقيون يرون أن الإنسان يجب ألا يحب كما يريد، بل كما يستطيع، فالدين هو الذي يأمره بالمحبة ويهبه القوة على الحب.[9]

وتختلف مكانة الدين لدى الإنسان بين مكان وآخر، فمكانة الدين عند الغرب تختلف عنها عند العرب؛ إذ لم تكن النهضة الأوروبية المعاصرة ضد الدين إنما كانت ضد المؤسسات الدينية التي عطلت التطور العلمي، ووقفت في وجهه، فالدين له صلة بالوعاء الإنساني الموروث الذي احتضن التطور واحتواه، وسهل له المعابر، ووفر له وسائل النمو دون عقبات أو ممانعة شعبية.

وبات الإنسان الغربي المعاصر يظن أن العلم الذي حقق كل هذه الاكتشافات العظيمة وذلل كل صعوبات الطبيعة سيحل يوماً ما مكان الدين إلا أنه وعلى الرغم من كل ما حققه الغرب من تقدم في مجالات النشاط الإنساني، ترك وراءه مشكلة أكبر من توقعاته وهي الفقر الروحي للإنسان المعاصر، وتجديد تصوره الكلي للكون وفهمه للغاية النهائية للوجود الإنساني. [10]

أما الإنسان العربي المتخلف مادياً وتكنولوجياً فلا تقل مكانته أهمية عن الإنسان الغربي؛ إذ إنه يتمتع بالمستوى الروحي الذي تفرضه الإنسانية، وهو يعطي المؤسسات الدينية مكانة كبيرة لتتدخل حتى في أبسط شؤون

---

[9] – بوترو، إميل، *العلم والدين في الفلسفة المعاصرة*، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص 295-296.

[10] – انظر: محمد أحمد: نهضة أوروبا والمسالة الدينية، في www.alwasatnews.com

حياته. وفي واقع الأمر إن أزمة المجتمعات العربية المعاصرة تعود في الأساس إلى افتقارها للقدرة على تمثل ذاتها والانفتاح على الذوات الأخرى وعجز العديد من الإيديولوجيات القطعية عن إيجاد إجابات وحلول صريحة لأوضاعها المتردية؛ لأن الحل الحقيقي هو الإيمان بالإنسان وقدرته على خلق مستقبل أفضل من خلال ممارسة واعية لذات متصالحة مع نفسها ومع الله ومع العالم. [11]

والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم: هل الإنسانية في طريقها إلى استبعاد الدين لتبحث من خلال التجارب العلمية في كل اتجاه عن مرشد جديد؟؟

4- الدين والعلم المعاصر:

عادة ما تتهم الفلسفة اليونانية بأنها وضعت حداً للفكر الديني والميثولوجي؛ وبذلك تكون قد حررت العقل من شروطه القديمة، وهذا الطرح يسير مع الفرض القائل إن الدين هو شكل أرقى من أشكال النظر العقلي، والفلسفة هي شكله الأرقى والأعلى، واعتماداً على تكرار هذه المقولة التي لم تخضع للنقد يقسم تاريخ الفكر الإنساني إلى أربع مراحل: هي: السحر، والدين، والفلسفة، والعلم التجريبي، وعلى الرغم من الأرضية الصلبة التي فرشتها الفلسفة أمام الفكر الإنساني مع فترة مدها الأولى، فقد بقي أسير التصورات الدينية والأسطورية إلى أن أينعت ثمار عصر النهضة في أوروبا، وجاء كوبرنيكوس بنظريته الجديدة عن النظام الشمسي التي كانت فاتحة لاستقلال العلم عن الدين والأسطورة، ولعل التاريخ القريب جداً لنجاح العلم والفلسفة في ترسيخ أقدامهما وما نراه من مقاومة عنيدة للفكر الديني في كل ثقافة من ثقافات العالم يجعل من تقسيم تاريخ الفكر إلى مراحل أربع يتوجها العلم، موضوعة نظرية لا أمراً فعلياً، فقد امتص الفكر الديني صدمة انتصار العلم والفلسفة، ومايزال يزاحم وبقوة على اقتسام أهواء الناس وعقولهم في كل مكان، ويظهر علماء اليوم تواضعاً أكثر من سابقيهم رواد النهضة العلمية وهم لا يرون غضاضة في الإفصاح عن صلة الفكر العلمي بالدين.[12]

وتثير العلاقة بين الدين والعلم في ثنايا التاريخ أشد العجب، فعلى الرغم من تصالح الدين والعلم مرات كثيرة وتلك الجهود الكبيرة التي حاول معظم المفكرين بذلها في سبيل إيجاد حلول عقلية للمشكلة، لم ينقطع الصراع بين العلم والدين؛ إذ يريد كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فقط، ولا يزالا قائمين فلم يكن مجدياً محاولة العقائد الدينية تسخير العلم؛ لأنه تحرر من سلطتها، ولم يستطع العلم التنبؤ بمستقبل الأديان حتى الآن.

والذي يلوح في الأفق الحاضر أن السلطتين المتنازعتين هما الروح العلمية والروح الدينية وليس الدين والعلم بوصفهما مذهبين، فالعالم لا يهمه كثيراً في نهاية الأمر إذا كان الدين لا يثبت في عقائده شيئاً يتفق مع العلم ونتائجه. إن هذه القضايا سيقدمها الدين على أنها عقائد وموضوعات للإيمان تربط العقل مع الشعور، وتعبر عن صلة الإنسان بنظام من الأشياء ليس باستطاعة معرفتنا الطبيعية بلوغه، ولعل في هذا ما يكفي لصاحب العلم أن يطرح الطريقة التي يسلم بها صاحب الاعتقاد، وأضحت اليوم محاولة التوفيق بين معتقدات الدين ونتائج العلم قليلة القيمة، ويذهب مفكرون إلى أن العلم يرمي إلى استبعاد ما يتضمنه الدين من جهة المبدأ،فالمتدين يستخدم ملكاته بما لا يتفق

[11] – انظر: أحمد عمر: الاتجاه الروحي في الفكر العربي المعاصر، في www.asmama.com

[12] – السواح، فراس، *دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني*، دار علاء الدين، دمشق، ط4، 2002م، ص 19-20.

في الوقت الحاضر مع تقدم الحضارة الإنسانية وهكذا لا تختلف الروح العلمية عن الروح الدينية وتغايرها بل تنفيها.[13]

وتغدو هذه الفكرة بمنزلة قطيعة كاملة بين العلم والدين، وتتخذ ذريعة لها أن العلم قادر على أن يفعل كل شيء، ويكشف حقيقة كل شيء، فتلغي الدين على أساس قدرة علمية واكتشافات علمية متخيلة.

إن العلم بصورة خاصة هو من يقود هجوم اليوم، وليس من شك في أنه استمال الشعور الإنساني؛ لأن يقينه يفرض نفسه في وضوح لا مرد له، فتفترض الروح العلمية عند بعض ممثليها نفي الروح الدينية فهل تستبعدها بالفعل، أو تترك لها إمكان الوجود؟؟

مما لا شك فيه أن الروح العلمية اليوم ومبادئ العلم ليست مقررة بل تكون نفسها كلما تجدد العلم وتقدم، فمن جهة العقل يصنع العلم الذي لا ينفصل عن الأشياء ، ومن جهة أخرى يؤثر المصنوع في الصانع، فليس ما نسميه بالمقولات العقلية إلا مجموع العادات التي كونها الذهن في عمله لتمثل الظواهر. وهكذا فليست الروح العلمية مقياساً ثابتاً توضع فيها الظواهر وتنظم، وإنما هو العقل الحي المرن الذي ينمو ويتحدد بنفسه.

إن الروح العلمية واعية بالنتائج التي تقودها إليها جرأتها المتزايدة في سبيل طموحها، ولم تبرح غايتها هي هي دائماً أي أن تخلق في العقل البشري صورة صادقة وأصبحت العبارة القائلة لا يمكن تفسيره علمياً غير ذات معنى، فالقول بقوة خفية وواقعة معجزة تفرض وجودها ليس شيئاً آخر غير أن العلم لم ينجح في تفسيرها بمعونة ما توصل إليه من قوانين، وإذا ثبت استحالة هذا التفسير فليس على العلم ضير في البحث عن قوانين أخرى والفرد في بحثه العلمي يسعى إلى تنظيم الأشياء من وجهة نظر لا شخصية فكيف يحرم عليه العلم الذي هو ثمرة عمله أن يسعى كذلك إلى تنظيم الأشياء من وجهة نظره نفسه؟

إن هذا التنظيم لا يحمل قيمة موضوعية بالمعنى الذي يخلعه العلم على هذه اللفظة، ولكنه إن كان يرضي العاطفة فإنه يحقق حاجات إنسانية لا تقل في واقعيتها عن الحاجة إلى رد الأشياء بعضها إلى بعض، وإلى جانب ذلك هناك درجات متعددة من التنظيم الذي يتم من وجهة نظر الفرد، وأدنى هذه الدرجات هي النظر إلى جميع الأشياء في صلتها بشخص وحيد يعد نفسه محور العالم، وفوق هذه الفردية المتطرفة سلم من التنظيمات التي لا ترد فيها الأشياء إلى فرد واحد بل إلى كثيرين؛ بذلك يمكن للتنظيم الشخصي أن يحاكي على طريقته صفة العلم الكلية، والدين يمثل تنظيماً من هذا النوع؛ لأن الدين ينسب إلى الفرد قيمة ويعده غاية في ذاته، وينبغي أن يتاح للإنسان أن ينظر لا في شروط المعرفة العلمية فقط، بل في حياته الخاصة كذلك، فإذا كان ثمة أساس ضروري لحياة الإنسان كما يلاحظها ويدركها فهو الاعتقاد في الواقع وفي قيمته الفردية.[14]

وهذا ما يؤكد أن الإنسان لا يحيا بالعلم وحده وإذا كانت المؤسسات الدينية تقف حجر عثرة أحياناً في وجه التطور العلمي فإن هذا لا يعني ان يبعد الدين من حياة الإنسان ويتركه عرضة للفقر الروحي.

يبدو أن الصراع بين العلم والدين أو بين العلماء ورجال الدين يعزى أحياناً إلى سوء فهم من كلا الجانبين، فغدت الصورة الدينية صادقة بالنسبة إلى بدء العالم ومنتهاه، والصورة العلمية صحيحة بالنسبة إلى ما يقع بين الطرفين، أما الإنسان فهو بين الاثنين في عصر جديد!!!

---

[13] – بوترو، إميل، *العلم والدين في الفلسفة المعاصرة*، ص 271–274.

[14] – المرجع السابق، ص275–285.

5- الإنسان في عصر جديد:

تطرح القضايا الإنسانية نفسها اليوم في ظروف تاريخية جديدة، تقتضي الكثير من الجهد الخلاق ، ففي السنوات العشرين الأخيرة تسارعت عجلة التاريخ على صورة لا مثيل لها من قبل، وبرزت ظاهرة عملاقة تعطي هذا الوضع الجديد ملامحه الرئيسة، وهي التقدم البالغ السرعة في العلوم والتقنيات ومثل هذا التغير ليس بالتغير الكمي، بل هو تغير كيفي، وفي خضم هذا التطور تطرح نفسها مسائل جديدة لم تطرح من قبل، فالإنسان لم يعد التطور الواعي لذاته فحسب، بل هو على طريق أن يصبح التطور السيد لذاته، أن يصبح أحد عوامل التطور وهذا ما يجعله قادراً على تغيير الوراثة وعلى التوجيه البيولوجي لطاقات الفرد وهذا يطرح في قلب العالم نفسه مشكلة أخلاقية، مشكلة غائية، إذ باسم أية قيم سيتم اختيار ما يراد إنماؤه من طاقات؟

إن كل ما يحدث على المسرح الكوني الذي يزداد تمزقاً وتأزماً أو اضطراباً وإرهاباً يحمل من يفكر ويتأمل على المراجعة وإعادة النظر بصورة جذرية تضع موضع المساءلة والفحص الترسانة الرمزية للعقيدة الإنسانية، فكيف يسوغ الإنسان ما وصل إليه من التردي والإفلاس والتدهور والسقوط على كافة الأصعدة الوجودية بعد كل هذه الوعود والآمال؟؟

لعل ما يشكو الإنسان المعاصر منه مصدره فرط ادعاءاته المثالية والمتعالية ومزاعمه الإلهية والغطرسة الحضارية والتقنية في كافة أنحاء العالم.[15]

في أية حال، إن ما يشهده العالم من تغيرات على وقع الانهيارات المتلاحقة والمفاجئة وفي ضوء التحولات الهائلة والمتسارعة، يحمل الإنسان المعاصر على تغيير صورته وسط المشهد الكوني فلا يمكن أن يتغير العالم بهذا الشكل دون أن يتغير نمط وجود الإنسان وأشكال روابطه وصورته عن نفسه وبصورة خاصة في هذا العصر.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد تسمية دقيقة لهذا العصر انطلاقاً من أن كافة العصور قد شهدت تصارعاً في تيارات السياسة والثقافة والأدب والعلم بشكل عام، وحمل كل عصر في النهاية آلاف الآلام وآلاف الانتصارات في كافة الاتجاهات ويبقى أحد العصور سائداً حتى تأتي حقبة زمنية جديدة أشبه بنزول المطر على أرض جرداء فيمحو آثار حقبة زمنية ماضية ويعلن ولادة عصر جديد.

فإن القرن الحالي يعد عن جدارة قرن سيطرة العلم والتكنولوجيا فقد تمكنت منجزات العلم في كل المجالات من تحقيق تطورات مذهلة، وقد فرضت التحولات الجديدة استخدام مفاهيم معاصرة ارتبطت بمجمل التطورات الحديثة وبالبحث العلمي وكل مناحي الحياة، الأمر الذي زاد من حدة الأزمة الدينية.

6- أزمة الدين المعاصرة وأسبابها:

يشهد تاريخ العالم أن الدين بكل صوره المتعددة كان دائماً عنصراً أساسياً في حياة الإنسان، فمن طبيعة غالبية البشر أن تنظر إلى أبعد من ذاتها، ولكن هذه الرؤيا في هذا العصر قد أصبحت غامضة، وأضحى الإنسان يعيش حالة فوضى واضطراب. فالمشكلات المعاصرة التي تواجه الدين ليست بخافية عليه؛ لأنه يعيش العصر الحالي بوعي، فقد واجه الدين نظماً عقائدية معارضة اقتصادية وسياسية، فضلاً عن موجات الإلحاد التي ظهرت في الفلسفة والأدب. وعلى الرغم من اهتمام الكثيرين بالدين فإن هناك إحساساً بعدم قيمة الدين نتيجة لعزله عن حياة الفرد، وفشله في عرض قيمه بصورة أو بعبارات تجيب على المشكلات التي تعترض الإنسان المعاصر.

[15] – غارودي، روجيه، *الأخلاق والدين*، ترجمة نزيه الحكيم، دار الوثبة، دمشق، 1983م، ص 7-30.

وثقافة اليوم سطحية والإنسان اليوم غني في الآلات وفقير في الأهداف، فقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الدين، وانتزع العلم منه الأسس المتعالية لأخلاقه، وبدا العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة، ويفتقر العالم المعاصر إلى الجانب الروحي، فالبشرية في العصر الحاضر قد وصلت إلى معرفة كافية لخلق حضارة عظيمة، ولكنها لم تصل بعد إلى حكمة كافية لضبط هذه الحضارة والمحافظة عليها، فقد فَقَدَ الدين ومعه الأخلاق قيمتهما وصدقهما، ومن دون أن ينمو الإنسان نمواً روحياً يتناسب مع النمو التكنولوجي الضخم الذي وصل إليه، فإن المستقبل سيكون في خطر.

وللازمة الدينية عدة عوامل أدت إلى تخلخل وضع الدين في العالم المعاصر من أهمها التقدم العلمي والتكنولوجي فقد أكد أهمية العقل والتجربة بوصفهما معياراً لصدق النظريات، فبرز نوع من التحدي من جانب هذا التقدم للإيمان والدين القائم على الوحي والإلهام، كما أدى انتشار العلمانية بوصفها اتجاهاً ثقافياً إلى الإقلال من شأن الدين في حياة الإنسان فانتشرت الدعوات إلى الإلحاد وتنحية الفكر الديني من مجالات الحياة كافة.[16]

كما أعادت الكشوف العلمية طرح مسألة معنى الإنسان ومكانته في الكون وكل ما يقوله الوحي في هذا المجال أضحى موضع تساؤل، وبدءاً من عصر النهضة والتنوير في نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر ونتيجة هذه الاكتشافات العلمية بدأ الإنسان يبتعد عن الدين وبدأ كثيرون بإثارة الشكوك حول حقائق الكتب المقدسة، وتبرز الأزمة الدينية واضحة عندما يؤكد الناس أن العلم قادر على الإجابة عن كل سؤال، وشعورهم بأنهم امتلكوا ناصية التفكير العلمي، وبأن إقصاءهم لقضية تعارض العلم والدين، بوصفها تشكل خطراً على الدين، أضحى قضية غير مهمة، كما يعود إلى أسلوب الدعوة الدينية المعاصر الذي يعد جزءاً لا يستهان به من الأزمة الدينية الحاضرة.[17]

وتتميز الأزمة الدينية المعاصرة بعدة خصائص؛ إذ يجسد الدين ورفضه في أولها موقفاً إرادياً وليس نتيجة استدلال عقلي؛ إذ يبدو من الوهلة الأولى أنه نتيجة لبرهان علمي قياسي، لكنه في الواقع غير ذلك فوراء هذه النتيجة يوجد قرار مبدئي لا يمكن إثباته عقلياً إلا بتأثير فعل إرادي، وهذا الموقف في ثانيها يحاول أن يفسر العالم بمعزل عن الله؛ لأنه لا يحتاج إليه لفهم هذا العالم فالعلم قد فسر كل شيء، وبنى المجتمع دون إله، وبرز الإله في ثالثها بوصفه مجرد قضية خاصة لا تهم إلا ضمير الفرد ذاته فقط.[18]

إذاً في هذا العصر ثورة قائمة في مملكة الروح، فقد كان الإنسان سابقاً يحس بأنه يعيش على مرأى من رقيب قدير، ولكنه اليوم يحس أن لا رقيب عليه إلا جيرانه وضميره، والقليل من الناس يتصرف بمسؤولية وكأن الأجيال القادمة ترقب ما يفعله، وكانت المشكلة الأخلاقية لكل إنسان هي أن يوطن إرادته على أن تتلاءم وإرادة الإله ، وجسدت المقدمة الكبرى التي ارتكزت عليها جميع الفرص الإنسانية والآن عندما فقد الإنسان إيمانه بوجود إله سماوي، أصبح عليه أن يجد سبباً آخر غير تجلي إرادته، ترتكز عليه طرق اختياره للمبادئ الخلقية.[19]

---

[16] – يوسف، حسين، *الاتجاه الديني المعاصر لدى الشباب*، ص 91–96.

[17] – سليمان، فايز، *حول أزمة الدين والأخلاق في المجتمع المعاصر*، دار الثقافة، القاهرة، 2002م، ص 51–55.

[18] – شلحت، فيكتور، *مسألة الله في التاريخ: من الكتاب المقدس إلى الظاهرة الدينية المعاصرة*، دار المشرق، بيروت، 1998م، ص 50–52.

[19] – ليبمان ، والتر ، *الدين والإنسان المعاصر*، دار الوثبة، دمشق، 1980م، ص 135–138.

إذاً يمكن للإنسان أن يرفض الدين، ويضع اكتشافات العلم والمعرفة مكانه في الأخلاق والسلوك وبقية الحقول الاجتماعية، وبذلك قد يفقد سعادته الإنسانية وراحته الروحية، وقد تؤخذ منه، وتختلط بعض أهدافه مع بعضها الآخر، فالدين ينظم الحياة ويؤمن للإنسان حاجة روحية قد لا يستطيع غيره تأمينها.[20]

وهذا ما يدفع إلى إعادة النظر في حياة الإنسان المعاصر الخاصة؛ لأن الجانب الروحي على قدر كبير من الأهمية لدرجة أن إلغاءه قد يجعل الإنسان تائهاً متعباً لا يعرف كيف يرتاح.

لقد غيرت التطبيقات العلمية إدراك الإنسان ومعرفته بصورة جوهرية، علاوة على إحساسه بذاته ومجتمعه وقدراته.

مكانة الدين لدى الإنسان المعاصر:

لقد انصرف الإنسان المعاصر عن الدين، ولكن دون أن يفقد القابلية للإيمان، فهو معلق في الواقع بين السماء والأرض، فلا يجد طعماً للراحة في أي مكان، وليس هناك من نظرية لمعنى الأحداث وقيمتها حين يضطر إلى مواجهتها، وليس هناك من سلطة روحية ينبغي له أن يتجه إليها، وإنما هناك آراءٌ وأساليب وبدع مفروضة، وليس لديه من غاية حتمية في الكون، وإنما هناك ضرورات محكمة مادية وسياسية واقتصادية، ولا يشعر بأن له دوراً رئيساً في هذا المصير، وإنما هو خاضع لسيطرة القوى الجماعية في هذه الحضارة، وليس في مقدوره أن يتجنب وطأة الأحداث فلها وقع كوقع الأحداث الطبيعية، ولكنها تخلو من ثباتها الأخلاقي، ولعل انصراف العالم عن الدين يجسد حركة ثورية وجذرية لم تحدث في الماضي فقد تضافرت ظروف الحياة مع اتجاهات العصر على بعث الشكوك لدى الإنسان في أي عقيدة راسخة مسيطرة، فالانحلال الذي أصاب سبل التفكير القديمة قد مضى بعيداً، وتراكمت آثاره ولم يعد الإنسان قادراً على العودة إلى منهج جديد وراسخ القواعد وسط الفوضى والاضطراب المستمر، ولا يفتقر الإنسان المعاصر إلى الإحساس بالغموض والرهبة والدهشة الذي طغى على الجميع فالنزعة العاطفية موجودة غير أنها مكبوحة فلا تسيطر عليه سيطرة تامة.[21]

النتائج والمناقشة:

يمكن القول: إن التصميم على الإيمان يكبحه شيء من خبرة الإنسان المعاصر وما ذلك الشيء إلا الشعور بأن الدليل على الإيمان لا يمكن أن يصدق صدقاً تاماً ، والشعور بالقداسة ليس دليلاً قاطعاً على وجود قوى مقدسة، والإنسان المعاصر ليس عاجزاً عن الإيمان، وإنما تكمن في جوانحه عاطفة مغايرة تشبه الإيمان من حيث عمقها وقوتها، وهي التي تجعل أدلة الإيمان غير قابلة للتصديق.

---

[20] – AL_BALAG FOUNDATION, *man and religion*, Tehran, Islamic republic of iran,1988. ,p63.

[21] – ليمان، والتر ، *الدين والإنسان المعاصر*، ص 17–59.

الاستنتاجات والتوصيات:

نستنتج مما سبق أن العالم لم يعد كما كان عليه من قبل، فالتحولات الجذرية المتسارعة تغير وجوه النشاط البشري في كل مجال وقطاع، إنه عصر جديد متعدد الأنظمة والموارد الفكرية ولا يعقل أن يتغير مشهد العالم وخريطة الواقع دون أن يتغير الفكر فيهتم بقراءة المعطيات والتعاطي مع الأحداث بلغة الفهم وإلا همشته التغيرات وصار آلة للتحولات، وفي كل هذا يحتاج الإنسان إلى الدين وما يحققه من أمان روحي للارتقاء بإنسانيته بصورة أفضل أمام التحديات المتجددة.

المراجع:

1- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: *لسان العرب*، مجلد 4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، بيروت، 1997م.

2- السواح، فراس، *دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني*، دار علاء الدين، دمشق، ط4، 2002م.

3- بوترو، إميل، *العلم والدين في الفلسفة المعاصرة*، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.

4- سليمان، فايز ، *حول أزمة الدين والأخلاق في المجتمع المعاصر*، دار الثقافة، القاهرة، 2002م.

5- شلحت، فيكتور ، *مسألة الله في التاريخ: من الكتاب المقدس إلى الظاهرة الدينية المعاصرة*، دار المشرق، بيروت، 1998م.

6- صليبا، جميل، *المعجم الفلسفي*، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م

7- غارودي، روجيه، *الأخلاق والدين*، ترجمة نزيه الحكيم، دار الوثبة، دمشق، 1983م.

8- لالاند، اندريه، *الموسوعة الفلسفية*، الجزء الثالث، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1996م.

9- ليبمان، والتر، *الدين والإنسان المعاصر*، دار الوثبة، دمشق، 1980م، ص 135-138.

10- يوسف، حسين، *الاتجاه الديني المعاصر لدى الشباب*، دار المنارة، الإسكندرية، 2005م.

AL_BALAG FOUNDATION, *man and religion*, Tehran, Islamic republic of iran,1988.1-

2- GRISH.B.A.F. *schleir macher*,encyclopedia of religion, vol 13 Grolier Incorporated, U.S.A, First Edition, 1829.

مواقع الانترنت:

1- www.asmama.com

2- www.alwasatnews.com

3- www.tahawlat.com